

رابطة العالم الإسلامي
المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار

الأسرة والخلق في المشترك الإنساني

د. علي أوزك

رئيس وقف دراسات العلوم الإسلامية

1429/5/28-26 هـ

2008/6/2-5/31

مكة المكرمة

(1)

II

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن موضوع "الأسرة والأخلاق في المشترك الإنساني" موضوع هام وكبير، لأن الأسرة وحدها تحتاج إلى كلام كثير، كما أن الأخلاق أيضاً موضوع واسع يحتاج إلى بحوث كثيرة .

وأنا أبدأ بالأسرة فإكتب بحثاً مختصراً بإذن الله تعالى.

الأسرة

ما معنى الأسرة لغة واصطلاحاً؟

الأسرة لغة: الدرع الحصينة، والأسرة أهل الرجل وعشيرته، وكذا الأسرة الجماعة يربطها أمر مشترك ، والجمع (أسر).

و الأسرة اصطلاحاً: جماعة الأقرباء القريبة مثل الأب والأم والأولاد الذين يعيشون مع بعض في بيت واحد.

ما هي الأسرة والعائلة

الأسرة أو العائلة مجموعة من الناس يعيشون في بيت واحد غالباً. وهذه المجموعة بطبيعة الحال تتشكل من الأب والأم والأولاد. وهذه المجموعة هي الحجر الأساس لتكوين الأسرة.

أهمية الأسرة والعائلة

الأسرة بالنسبة للأولاد مهمة جداً وجديرة بالاهتمام. لأن الأولاد محتاجون إلى الرعاية مادياً ومعنوياً. كما تعلمون أن الكائنات الحية تحتاج إلى عائلة مهما كانت الظروف. فكل الحيوانات تعيش في نظام عائلي، كما أنها تملك غرائز تُقرب الذكر من الأنثى، وهذا نظام الطبيعة؛ لأن الله تعالى خلقهم على هذه السلوك.

و ذلك أن بين الذكر والأنثى علاقة شهوية تجعل الواحد يتقرب من الآخر، وهذه الغريزة الشهوية هي البذور الأولى لتأسيس بناء الأسرة. وأما الغاية الكبرى والهدف المرنو إليه من الاجتماع الجنسي فهو تنشئة وتربية الأولاد وإدامة كل جنس نسله في هذه الدنيا. وعلى هذا الأساس يتشكل نظام العائلة أو الأسرة. ونظام العائلة يتغير باستمرار، كما أن الحياة تتغير وتجدد دائماً.

إن الأسرة تكثر بسبب تكاثر الأولاد، وهذا - طبعاً - يكون بالزواج. ثم إن الأسرة تنتهي بوفاة الآباء والأمهات، لنتشأ أسرة جديدة. لذلك فالأسرة كالألة المتحركة تتحرك دائماً. فكلما أفلت عائلة تظهر عائلة أخرى، وهكذا تدوم الحياة.

كما يقال:العالم يتغير ويتكاثر، ويغيب ويظهر، ويأتي واحد ويذهب الآخر؛ وأيضاً تتغير المواسم، فيأتي الصيف بعد الشتاء، والخريف بعد الصيف، والربيع بعد الشتاء. وهذه التغيرات والتبدلات، الكثرة والقلّة، الحياة والموت؛ كمثل حياة

الإنسان، يموت واحد ويلد الآخر، ليسد المولود الجديد مكان من يموت، كما أن الأسرة تنقرض ، لتأتي أسرة جديدة تسد مكان الأسرة الذاهبة.

وظائف الأسرة

تتلخص وظائف الأسرة في خمسة عناصر بالاختصار:

الأول: تنشئة وتربية الأولاد أي تنشئة وتربية الأجيال .

الثاني: إشباع الحاجات البيولوجية الطبيعية الكامنة في الإنسان بالطبع، وهي

الشهوة.

الثالث: الحب والصدقة والرعاية.

الرابع: التعاون مادياً ومعنوياً وأخلاقياً.

الخامس: الدفاع تجاه كل ما يسيء ويضر أفراد الأسرة .

1. الوظيفة الأولى: تنشئة الأجيال

إن الوظيفة الأولى والأهم لمؤسسة العائلة هي تنشئة الأجيال . وهذه الوظيفة هي في الحقيقة بالنسبة إلى الكائنات الحية وظيفة طبيعية. ولا يتحقق تواصل النسل البشري وتواصل نسل الحيوانات الأخرى على وجه الأرض إلا بهذه الطريقة.

وإذا نظرنا إلى الظاهرة من زاوية أخرى؛ فإننا سنكون قد وفينا حق الأبوة والبنوة وأيضاً وفينا الحق الإنساني المستوجبين علينا تجاه والدينا الذين ربّينا.

وبالنسبة إلينا فإن الجانب الأهم في الزواج وبناء الأسرة هو الإيفاء بحق والدينا وكذلك تنشئة الأجيال التي ستخلفنا من بعدنا. وإن لم يتحقق ذلك كما ينبغي كذلك فإن مستقبلنا سيكون في خطر.

2 - الوظيفة الثانية : الحاجة البيولوجية

إن سدّ الحاجة الطبيعية المعروفة بالشهوة ذو صلة بدوام النسل. ذلك لأن الخالق جل وعلا قد أودع في كلاً الطرفين من الذكر والأنثى هذه القوة؛ كما هو الأمر لدى كل الحيوانات وذلك لأجل الحفاظ على تواصل النسل، والهدف واحد، لكن الإنسان وللأسف الشديد يتصرف في استخدام هذه الظواهر الطبيعية، ويذهب إلى طريق أخرى غير صحيحة وغير مشروعة.

و هنا نريد أن نلفت أنظار الناس إلى خطر الأسرة في العالم الجديد. ففي العالم الغربي اليوم تنهار مؤسسة الأسرة بسبب الحياة الشهوية بدون زواج، وهذا الطراز من الحياة يأتي بضررين كبيرين :

الأول : انهيار نظام الأسرة، وبهذا تصعب تربية وتنشئة الأولاد، ويحرم الطفل من حب الأبوين ورعايتهم.

الثاني : انتشار الفحش والفساد في المجتمع، وهذا يضر الإنسانية وينقص من كرامة الإنسان ويقل نسل البشرية.

3-الوظيفة الثالثة : الصداقة:

الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع. وهذا يُثبت أن الإنسان في حاجة إلى مساعد يساعده وحام يرعاه في الحياة، وصديق يوانسه؛ ذلك لأن للإنسان مجموعة من الأحاسيس والمشاعر كالمحبة والكراهية لا يمكن إشباعها إلا بالصدقة. وابن آدم يبحث بطبعه عن يشاركه في الأفراح والأفراح. فالأسرة هي الوسطة الوحيدة التي تعطي هذه الفرصة للأفراد.

4- الوظيفة الرابعة : التعاون:

يحتاج الإنسان إلى التعاون لتوفير الاحتياجات اللازمة للحياة. وكما هو معروف فإنه من غير الممكن أن يغطي الفرد كل احتياجاته بنفسه. وخصوصاً في هذه الحياة المعاصرة؛ فهذا مستحيل تماماً. ذلك؛ لأن الإنسان يختلف عن بقية الحيوانات من حيث طريقة العيش. وخاصة أن حاجة الإنسان إلى التعليم والتعلم لا يمكن أن تُسد إلا باستعانة الإنسان بإنسان آخر. وبدون الحاجة إلى الآخر فإن المتطلبات المادية والمعنوية للإنسان لا يمكن تلبيتها أصلاً. وهكذا فإن الإنسان محتاج إلى غيره في هذه الأمور؛ وخصوصاً في فترة الطفولة.

5- الوظيفة الخامسة : الدفاع:

إن دفاع الإنسان عن نفسه ضد الأخطاء الخارجية والداخلية مسألة جد مهمة. إذ يدافع أفراد العائلة عن بعضهم بعضاً متحدين فيما بينهم ومتساندين في المصائب مثل الجوع والمرض والآفات الطبيعية. وتحمل المحبة المتبادلة مكانة عظيمة في حياة الإنسان. فحب الوالدين والأولاد والإخوة والأقارب؛ كل هذه الأمور تدخل في باب الدعم والدفاع المتبادلين. و هنا نضيف النسب العائلي؛ فإن النسب ذو أهمية كبيرة، ومعرفة النسب تعطي الإنسان شرفاً ووقاراً. لأن كل إنسان له الحق أن يعرف آباءه وأجداده. إذا ضعفت المؤسسة العائلية ضعف نسب الناس، وهذا يؤدي إلى الاختلافات الكثيرة.

متطلبات تواصل مؤسسة العائلة

تنشأ نواة العائلة من اجتماع رجل وامرأة عن طريق الزواج. ويزداد حجم العائلة عن طريق ولادة الأطفال. وإن العنصر الأهم في توجيه العائلة ونموها ودوامها دون فساد هو الرجل، الذي كان زوجاً وأباً في العائلة. وينبغي على الرجل أن يكون متسامحاً ووقوراً، فلا يمكن للرجل أن يقول: " أنا حاكم مطلق في العائلة " بل عليه أن يستشير أفراد العائلة في كل المسائل التي تتعلق بمشاكل الأسرة.

لكن وللأسف -لم يتم العمل المفيد الوسط بآراء علماء الإسلام في هذه المسألة. والآية الكريمة ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ (النساء: 34) قد فسرت - خطأ- على أنها تجيز للرجل استعمال الشدة في الأسرة، وهذا الفهم والاجتهاد غير سليم، ولا يستند على الأحاديث الواردة في هذه المسألة.

وسادت فكرة استخدام الرجال العنف إزاء النساء على اعتبار أن معنى القوامة هي القوّة. والحال أن المسألة ليست كذلك. ودعك من استعمال العنف مع النساء فعلى الرجل أن يفهم المرأة ويتفاهم معها، ويعطيها القيمة التي تليق بها ، وأن يقدر موقعها المهمّ داخل الأسرة وأن يساعدها في كل الأمور.

وإنّ هذا النوع من المعاشرة هو المعاشرة الصحيحة والمعاملة الحقة كما هو معلوم من السنن العملية لنبيّنا عليه الصلاة والسلام.

ومن الحقائق المهمة أن الرجل الذي ينتظر فهماً وتفهماً من زوجته، لا يعمل من طرف ذاته، لا يكون زواجه ناجحاً. ذلك لأن الجانب المهمّ والفطري في المرأة هو كونها أمّاً، ولذا فمن العادي أن تتصرّف المرأة أحياناً مع زوجها بقسوة أو تخاطبه بحدّة. فعلى الرجل أن يقدر المرأة في هذا الصدد ويصبر ويتفهم صعوبة وضعها كأمّ تلد وتربي وتنشئ الأطفال.

وإذا كان الحال كذلك، فإن انتظار الرجل من زوجته أن تفهمه وتعامله بالتفاهم؛ فإن هذا يؤدي إلى المشاجرة ، بل يجب على الرجل أن يعاملها في هذه الحالة كما عاملها الرسول ﷺ، لأنه إذا تصرّف معها بشدّة وعنف بسبب تصرّفات خشنة، فيتسبب ذلك كله أولاً في عدم التفاهم داخل الأسرة ، ثم ربما في تشتت العائلة .

وما يجب فعله في هذه الحال هو أن يقابل الرجل زوجته بنوع من الحب والتسامح والليونة وبألفاظ لينة تجلب حب المرأة وودّها مهما تصرفت معه بخشونة، لأن ذلك يليق بها كأمّ.

وإذا عاشر الزوج زوجته معاشرة حسنة فإنها ستحبّه بقدر حبّها لطفلها. ثم إننا إذا نظرنا إلى القضية من زاوية إسلامية فإن النبي ﷺ قال: ((خياركم خياركم لنسائهم)) وقال عليه السلام في خطبة الوداع: ((واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً)).

وقال تعالى في كتابه الكريم بخصوص النساء اللاتي يخشى منهنّ نشوز : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِن أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً أُن اللّهِ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً وَإِن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا أُن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللّهُ بَيْنَهُمَا أُن اللّهُ كَانَ عَلِيماً حَبِيراً﴾ (النساء: 34-35).

في هذه الآيات ذكرت أشياء منها ﴿ الرجال قوامون على النساء﴾ ومنها ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضجع واضربوهن﴾ ومنها ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾.

أولاً : ليس المراد من القوامة على النساء استعمال الشدة والعنف؛ وإنما المراد الرعاية وحسن المعاشرة وحفظهن من كلما يضرهن ويسيء إليهن. والدليل على ذلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ.

ثانياً : ليس المراد من قوله: ﴿ فاضربوهن ﴾ الضرب الحقيقي. لأن الرسول ﷺ أفاد في حديثه الذي رواه ابن ماجه في سننه في كتاب النكاح عن عبد الله بن زمعة قال : خطب النبي ﷺ، ثم ذكر النساء فوعظهم فيهن ثم قال : ((علام يجلد أحدكم امرأته جلد الأمة، ولعله يضاجعها من آخر يومه)). وقال في تكملة الحديث : ((لا تضربوا إماء الله)) (ابن ماجه، نكاح 51).

عن معاوية قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما تقول في نساننا ؟ قال : ((أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن)) (أبو داود نكاح 42).

وجاء أيضاً في سنن أبي داود : ((لا تضربوا إماء الله)) .
و عن عبد الله بن زمعة عن النبي ﷺ قال : ((لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم)) (البخاري نكاح 134).

من المعاني التي نقرأها في النصوص أن طلب الرجل المعاشرة، يفترض في الرجل أن يُلين الجو المتوتر بين الزوجين وأن يبعد شبح الخلاف. وما نريد أن نقوله هنا وهو أنه في حال انعدام التفاهم بين الزوجين يتحتم على الرجل أن يتفهم الموقف لا المرأة. ذلك لأنها أثقل حملاً في الحياة العائلية، فرعاية الأطفال وتنشئتهم على عاتق المرأة. كما أن المرأة باعتبار خلقها وانشغالها الدائم بالأطفال ربما يجعلها تتصرف مع زوجها كما تتصرف مع أطفالها.

إن الأم هي التي تتحمل العبء الأكبر خصوصاً في بناء عش الزوجية وتتحمل مسؤوليات كبيرة في تماسك العائلة؛ لذا فإن إحساسنا بقيمتها والتسامح مع بعض سلوكها والتظاهر بالحب لها من مستلزمات الإنسانية والأبوة في الواقع نفسه.

وبالنظر إلى الإيمان والفهم الإسلامي لوجود كل الكائنات الحية في هذه الحياة الدنيا نرى أنها أمانة أودعها الله الإنسان، ونظراً لوجود الإنسان المادي والمعنوي الذي يحمل قيماً ومسؤولية فينبغي له أن يؤدي هذه الأمانة وأن يحفظها من كل ما يضر الأمانة ويسيء إليها. وهذه تدل على أن للإنسان وظائف تجاه وجوده الذاتي، وكونه عاقلاً ومسؤولاً.

وهذه الوظائف تنقسم إلى ثلاثة أقسام عامة:

1- العبودية الخالصة للخالق في الحقيقة

وفي واقع الأمر إن أكبر وأعظم وظيفة للإنسان هي العبودية لله تعالى؛ إلا أن الشرط الأول لأداء هذه الوظيفة كاملة وغير منقوصة هو العيشة الصحيحة وسلامة الإنسان عن الأمراض والعلل. لذا قال رسول الله ﷺ : ((سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبد شيئاً أفضل من العافية بعد اليقين (أي الإيمان)، وعليكم بالصدق والبر فإنهما في الجنة، وإياكم والكذب والفجور فإنهما في النار)).

وفي رواية أخرى : ((أيها الناس ! سلوا الله المعافاة؛ فإنه لم يوت أحد مثل يقين بعد معافاة، ولا أشد من ريبة بعد كفر، وعليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور، وهما في النار)) (مسند أحمد بن حنبل مجلد 1 ص 8).

إن الرسول ﷺ الذي أعطى أهمية كبرى لحفظ البدن من الأمراض ومنع تكليف العبيد ما لا طاقة لهم، ولو كان هذا من العبادات والطاعات، لأنه قال: ((صوموا تصحوا)).

عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظل عليه فقال: ((ما هذا؟))، فقالوا: صائم فقال: ((ليس من البر الصوم في السفر)) (البخاري كتاب الصوم 54).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريه الناس، فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان فكان ابن عباس يقول: ((قد صام رسول الله ﷺ وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر)). (البخاري كتاب الصوم 55).

وهذه الأحاديث تدل على أن الإسلام دين يسر وسماح كما جاء في القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256). ويظهر من هذه الأحاديث والآيات أهمية الصحة والعافية، فبدون الصحة والعافية لا تتحقق مسؤولية الإنسان من جهة عقله وتكليفه.

إن التكليف والمسؤولية على العقل، ولتحقق مسؤولية العقل شروط، وهي السلامة من الأمراض والعلل. لأن التكاليف تجري بالبدن، والبدن يتحرك ويعمل بالصحة والعافية، ومن هنا نفهم ما قاله الرسول ﷺ.

وحفظ الصحة والعافية أولاً وقبل كل شيء يعتمد على المعيشة العائلية. لأن السلامة من الأمراض والعلل تبدأ أولاً بالأب ثم بالأم، ثم برعاية الطفل، ثم بتعليم الأولاد وتربيتهم ثم تتدخل البيئة في التعليم والتربية. والمؤثر الحقيقي والموجه الصحيح والمرشد الرشيد في نشوء الإنسان بالصحة والعافية مادياً ومعنوياً هو العائلة والأسرة.

2- وظيفة حفظ الوقار وعزة النفس

إن الإنسان أكمل وأشرف المخلوقات، فالله سبحانه وتعالى أفاد هذه المعاني في القرآن: ﴿وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

وقال الرسول ﷺ في حق الإنسان الذي يحفظ شرفه ووقاره عن أبي هريرة قال: ((المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة)) (سنن ابن ماجه كتاب



الفتن (6) فعلى هذا فإن المؤمن يجب عليه أن يحمي شرفه ووقاره وعزة نفسه، لأن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، مستقيم القامة، يستعمل يديه، ويعرف كل شيء بعقله. لذلك حرّمت نفس الإنسان وماله.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون عرضه فهو شهيد)) (البخاري، مظالم 52) فحفظ الوقار وعزة النفس وظيفة مهمة جداً، لأن الوقار وعز النفس من تمام شخصية الفرد.

3- وظيفة الإنسان في كسب الفضائل

نظراً لأن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ؛ فإنه يجب عليه أن يكسب فضائل تليق به.

الأول: هو الإيمان. أهم شيء في حياة الإنسان، هو الإيمان بالله تعالى والعبادة له، كما جاء في القرآن: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (سورة الذاريات).
الثاني: العلم. كان من أهم وظائف الإنسان التعلم والتعليم والتربية بسبب منح الله تعالى الإنسان العقل. ثم إن الإنسان بدون التعليم والتربية لا يكون أعلى من مستوى الحيوانات. الوصف المميز الذي يميز الإنسان عن الحيوانات هو العلم فبدون العلم يكون مستوى الإنسان كالحيوان ؛ كما نرى ذلك في القبائل الابتدائية التي تعيش في الغابات.

الثالث: العبادة. وهي أهم فضيلة للإنسان باعتبار أنها شكر وحمد للخالق
الرابع: فضيلة الخلق الحسن. قال الرسول ﷺ : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

عن علي بن أبي طالب : أن رسول الله ﷺ قال كان إذا قام إلى الصلاة قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا اله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك انه بك واليك تباركت وتعاليت. استغفرك وأتوب إليك)). (مسلم كتاب المسافرين مجلد 6 /ص 58/57).

الخامس: العمل وكسب ما يحتاج إليه الإنسان من الرزق الحلال. فإن الله تعالى أعطى الإنسان العقل ليعمل ويكسب رزقه. وأهم وظيفة بعد الإيمان وقبل التبعّد لله تعالى ؛ العمل والكسب. لأن العبادة لا تقبل إلا إذا كان كسب الفرد حلالاً. والكسب الحلال إنما يكون بعمل الإنسان وجهده، ولذلك الكسب الحلال هو صورة من التبعّد والعبادة.

الأخلاق في العائلة

الخلق ؛ حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر أو روية، وجمعه الأخلاق. (المنجد)

و علم الأخلاق أحد أقسام الحكمة العملية ، ويسمى أيضاً الحكمة الخلقية . ويقال : علم الأخلاق علم موضوعه أحكام قيمية تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح.

الأخلاقي : هو ما يتفق وقواعد الأخلاق أو قواعد السلوك المقررة في المجتمع (معجم الوسيط).

و السلوكيات التي لا تتفق مع القواعد المقررة في المجتمع تسمى " لا أخلاقي " .

كما تعلمون أن علم الأخلاق واسع موضوعها يشمل حياة الإنسان العملية كلها ؛ لذا نحن بصدد السلوكيات التي تتعلق بالأسرة أو العائلة .

و هنا نريد أن ننقل آراء علماء الأخلاق.

يقول ابن مسكويه، وهو من مشاهير العلماء: "الخلق ؛ حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية.

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب، فيهيج من أصغر سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفرع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

و منها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً؛ حتى يصير ملكة وخلقاً". (هداية الأخلاق، لابن مسكويه-26).

ويقول أبو نصر الفارابي : "وإن فترة كل إنسان أن يكون مرتبطاً فيما ينبغي أن يسعى ويحتاج كل إنسان فيما له أن يبلغ من هذا الكمال إلى مجاورة ناس آخرين واجتماعه معهم. وكذلك في الفطرة الطبيعية لهذا الحيوان أن يأوي ويسكن مجاوراً. لمن هو في نوعه: فلذلك يسمى الحيوان الإنساني والحيوان (المدني). فيحصل ههنا علم آخر ونظراً آخر يفحص عن هذه المبادئ العقلية وعن الأفعال والملكات التي بها يسعى الإنسان نحو هذا الكمال، فيحصل من ذلك العلم الإنساني والعلم المدني".

(الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، 61-62).

والسيد الشريف الجرجاني يعرف الأخلاق ويقول: "الخلق : عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة ، سميت الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً". (كتاب التعريفات، 101).

والإمام الغزالي يقول في بيان معنى حقيقة حسن الخلق وسوئه : " اعلم أن السعادة كلها والباقيات الصالحات أجمعها التي تبقى معك إذا غرقت سفينتك في شيتين :

الأول: سلامة القلب وطهارته من غير الله تعالى لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشعراء: 89).

والثاني: امتلاء القلب بمعرفة الله تعالى التي هي المقصودة من خلق العالم وبعثة الرسول ﷺ وحسن الخلق: هو الجامع لهما ، ولا أعلم خصلة تزيد عليه في الفضل، ولذلك امتدح الله تعالى به نبيه محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: 4) فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر: 10).

والكلم الطيب هو التوحيد والمعرفة والعمل الصالح هو طهارة القلب الرافعة لقدرة التوحيد والمعرفة، ومعنى الرفعة هو حضور القلب وتأثره بهما لينقاد خضوعاً ومسكناً ومهابة. فحينئذ يكون قريباً من الله تعالى، فأما حقيقة حسن الخلق: فاعلم أن الإنسان صورة باطنة وهي التي بعث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بتقويمها وتركيتها وكمال اعتدالها، وذلك أن تصدر عنها الأخلاق المحمودة بسهولة، بلا روية ولا فكر. وهذا هو معنى حقيقة حسن الخلق، وسوء الخلق يكون بعكس ذلك". (رسائل-97).

ومعلوم أن أهم احتياج الإنسان بعد الأكل والشرب هو الاحتياج الشهوي وتأمين الحاجات الشهوية، وهذه هي من الجوانب المشتركة بين الكائنات الحية وبين الإنسان، وقد أدى الإنسان هذه المتطلبات الشهوية بطريق الزواج غالباً. وفي الحقيقة أن الله تعالى خلق كل المخلوقات من الأزواج كما قال الله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: 36).

وهنا نكتة مهمة جداً، وهي أن الله تعالى خلق المخلوقات أزواجاً، وهو واحد وأحد لا يتجزأ ، وهذه الآية دليل قوي فريد على التوحيد ، لأننا نرى في الكائنات أن كل المخلوقات يتكون من اثنين.

خذ مثلاً: الإنسان يتكون من الأب والأم ، والحيوانات الأخرى هكذا ؛ حتى الأشجار فيها الذكر والأنثى؛ وحتى المعادن والمواد الكيميائية . وفي الآية أشار الله تعالى إلى ثلاثة أشياء وهي : ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، تفيد أن كل ما تنبت الأرض يتولد من الذكر والأنثى .

﴿ومن أنفسهم﴾ ، وهذا معلوم للجميع بأن هذه العبارة تفيد الحيوانات بما فيها الإنسان.

﴿ومما لا يعلمون﴾ . وهذا يدخل فيه المعادن والمواد الكيميائية. لو فُتِش وفُحِص ما في هذه الآية من الحقائق العلمية التي تدل على توحيد الله تعالى وعلى الأزواج وكثرة ما سوى الله تعالى لعلم الناس حقائق الكون.

ولماذا يحتاج الإنسان إلى تأسيس العائلة والأسرة؟
وهنا الآن نحن نشير إلى بعض الأسباب حول تأسيس الأسرة.
الأول: تقوية دوام النسل البشري الصحيح يعني صحيح النسب والصحة. وهذا يتحقق برعاية القواعد الأخلاقية بسبب اعتماد النسب والصحة على القواعد الأخلاقية.

قال النبي ﷺ: ((من أراد أن يلق الله طاهراً ومطهراً فليتزوج الحرائر)) (ابن ماجه، النكاح 1862).

عن أبي هريرة قال الرسول ﷺ: ((تناكحوا فإني مكاثر بكم الأمم)) (ابن ماجه، النكاح 1863).

وان كان للإنسان يمكنه أن يتكثر بدون الزواج؛ فإن طفل الإنسان يحتاج إلى رعاية خاصة لا يمكن للأم أن تفي هذه الرعاية وحدها، وهناك شيء آخر؛ فإن الإنسان يحتاج إلى تربية وتعليم؛ فالأم لا تستطيع وحدها أن تعمل هذا بمفردها.
الثاني: الزواج وتأسيس العائلة، فيمنع الرجل من إشباع الشهوات بطريق غير مشروع. وهذا أيضاً يفيد فائدة عامة ويحفظ الطرفين الزوج والزوجة من الأمراض وسوء الأخلاق.

قال النبي ﷺ: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)) (البخاري، نكاح، 4).

الثالث: الإنسان يحتاج إلى العائلة للشعور بالسعادة والطمأنينة، ويحس بحرارة حب العائلة والتقرب فيما بهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأَانِكُمْ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: 21-22).

هنا أشير في الآية إلى شينين:

أولاً: السكون وهو السعادة والشعور بالطمأنينة.

ثانياً: الحب والرحمة وهما أساس الحياة. لو لم يكن الحب والرحمة لما تحققت الحياة السعيدة.

الرابع: أن العائلة عماد المجتمع. فالمجتمع بدون العائلة والأسرة يشبه قطاع المواشي وينزل منزلة الحيوانات بل أضل منها كما جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: 179).

الحقوق والمسؤولية في العائلة

و في إمكاننا أن نلخص الموضوع كما يأتي:
الوظائف الحقوقية والمسؤولية في الأسرة

ينبغي أن يوجد الحب المتبادل بين الزوجين والوقار والرحمة بين أفراد العائلة والتحية والتسامح والفهم والتفاهم بين أفراد الأسرة وحفظ محرمة العائلة وإبقاء الاختلافات في داخل الأسرة لكي لا يعلم الآخرون أسرار العائلة .
ويجب أن يكون التصرفات الاقتصادية على العدالة ليستفيد كل أفراد العائلة متساوين من إمكانيات العائلة.

سلوك الأبوين تجاه أولادهم
وظيفة الأبوين لأولادهم يبدأ قبل الولادة. وكان ينبغي على الأبوين أن يهتموا بطفلهم وهو في رحم أمه . ثم في أثناء الولادة إلى أن تتم تسميته ، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التربية والتعليم.
وظائف الأولاد تجاه الأبوين
1- وجوب إطاعة الأبوين وحسن المعاشرة معهم .

ويجب على الأولاد أن يراعاهم ويرحمهم ويحميهم ويعاملهم معاملة حسنة كما جاء في القرآن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: 24).

في هذه الآية حكمة عظيمة وهي أن الله تعالى أفاد وبين للناس أهمية الأسرة والعائلة، لأن التوصية للأبناء بالأبوين إشارة مهمة إلى الأبناء لوجوب اهتمامهم بالآباء والأمهات، لأنه لا حاجة إلى توصية الأمهات والآباء؛ لأن الله تعالى أعطى لهم حب الأولاد طبعياً.

وفي نهاية كلمتي هذه أوجه شكري وامتناني إلى معالي الشيخ الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي وإلى القائمين على المؤتمر من الرابطة باسمي وباسم مؤسستنا "وقف دراسات العلوم الإسلامية".
وأقدم احتراماتي وتحياتي إلى رجال العلم المحترمين المشاركين في هذا الاجتماع.

- المراجع
- 1 - القرآن الكريم
 - 2 - الجامع الصحيح للإمام البخاري
 - 3 - صحيح مسلم للإمام مسلم بن حجاج
 - 4 - سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني
 - 5 - سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة
 - 6 - سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني
 - 7 - سنن النسائي للحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي
 - 8 - مسند أحمد بن حنبل للإمام أحمد بن حنبل
 - 9 - تهذيب الأخلاق لابن مسكويه دار الكتاب العلمية-بيروت
 - 10 - كتاب تحصيل السعادة للفارابي تحقيق در. جعفر آل ياسين
 - 11 - التعريفات للسيد الشريف الجرجاني
 - 12 - مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد محمد بن محمد